**المحور الأول:مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي:**

**أولا: حدود الفتوحات الإسلامية:**

كان أول اتصال للعرب المسلمين بالصحراء الكبرى الإفريقية عندما وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع إلى صحراء برقة في السنة الثانية للهجرة، حيث وصل حسب رواية ابن عبد الحكم إلى برقة وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها له جزية، على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم ثم وصل الى زويلة التي تعد أول بلاد السودان. ، وبعد فتحه لطرابلس الغرب فتح ودان (قرب مدينة زويلة)، وفتح أيضا مدينة فزان (جنوب طرابلس)، وذلك عام 46 للهجرة/666م، بالإضافة إلى مدينة كوار (الواقعة جنوب فزان). أما في ولايته الثانية، فيكون قد وصل إلى السوس الأقصى، وكان ذلك عام 62هـ/685م.

إن ابن عبد الحكم لا يفصل أكثر من هذا، بينما نجد أن البكري يشير إلى أن عقبة بن نافع قد وصل إلى أبعد من ذلك، و أنه بلغ مدينة نفيس، التي تقع في الركن الجنوبي من بلاد السودان بمحاذاة البحر المحيط، حيث يقول : «و من أغمات وريكة إلى مدينة نفيس1، وهي تعرف بالبلد النفيس كثيرة الأنهار و الثمار ليس في ذلك القطر موضع أطيب منه، و لا أجمل نظرا، و هي قديمة أولية، غزاها عقبة بن نافع صاحب رسول الله عليه وسلم، و حاصر بها الروم و نصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى فتحها، و بنا فيها مسجدا إلى اليوم و أصابوا فيها غنائم كثيرة، وذلك سنة اثنين وستين، وهي اليوم آهلة عامرة بها جامع وحمام وأسواق جامعة».

و بعد هذه الرواية لم نجد إشارات أخرى عن الفتح الإسلامي في بلاد السودان، مما يجعلنا نعتقد بأن الفتوحات الإسلامية الأولى لم تتجاوز الشواطئ الجنوبية للصحراء، ولم تتوغل إلى بلاد السودان، و هذا ربما يعود إلى مقتل عقبة بن نافع، وانشغال الفاتحين من بعده بفتح الأندلس، التي كانت تبدو أكثر أهمية من بلاد السودان. بالإضافة إلى المخاطر التي كانت تواجه الفاتحين الأوائل من القبائل البربرية الوثنين، و كذا هجمات الأسطول البيزنطي على سواحل قرطاجة، و على بعض الثغور البحرية في سواحل المتوسط.

ومهما يكن من أمر، فإن الفتح الإسلامي في بلاد السودان لم يتوقف عند ذلك الحد، بل أننا وجدنا إشارات مهمة في المصادر العربية، تتحدث عن استمرار عملية الفتح في عهد الأمويين، حيث يكون عبد الله بن الحبحاب، قد بعث مشروع فتح السودان من جديد، ففي سنة 116هـ، أرسل حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازيا إلى السوس الأقصى، و لم يقابله أحد إلا ظهر عليه، ولم يترك قبيلة إلا و فتحها و سباها. و يرجح البكري أن يكون هذا الجيش الذي أرسله الأمويون، قد دخل مملكة غانة لنشـــــر الإسلام، ثم استقر بعضهم هناك، و خلفوا ذرية كونت ما يعرف في و يرجح البكري أن يكون هذا الجيش الذي أرسله الأمويون، قد دخل مملكة غانة لنشر عهده (خلال القرن الخامس للهجرة) قوم يعرفون بـ (الهنيهين)، و الذين يقول عنهم بأنهم وثنيون علي دين أهل غانة، ولا يتزوجون مع السود.

وعلى كل حال فإننا نرجح أن يكونوا مسلمين، لكنهم يخفون إسلامهم، على عادة بعض ملوك السودان آنذاك،ذلك أن الإسلام كان ما يزال في بداية عهده.

كما يحمل إلينا البكري، إشارات أخرى حول حملات الأمويين لفتح بلاد السودان، من خلال ذكره للآبار الموجودة في المجابة الكبرى للصحراء الواقعة جنوب درعه، و التي يقول عنها بأن الجيش الذي أرسله بنو أمية لفتح السودان هو الذي حفره**،** و رغم ذلك كله، فإن تلك الفتوحات التي بدأت منذ صدر الإسلام، و رغم قدمها، إلا أن دورها بقي بطيئا في نشر الإسلام، ذلك أن أكبر فترة لانتشار الإسلام في المنطقة، كانت خلال عهد المرابطين.

**ثانيا:** **اعتناق قبائل الصحراء للإسلام و دورهم في نشره باتِّجاه الجنوب:**

لقد كان للاحتلال الروماني لشمال إفريقيا يشكل حاجزا مهما أمام السودان الغربي والأوسط، ومع نهاية العهد الروماني عرفت القوافل التجارية ومعها الجمال الطريق العابر للصحراء، معلنة عن ثورة حقيقية قلبت نمط الحياة في الصحراء الكبرى، و امتدت آثارها إلى غاية القرن التاسع للهجرة مع اكتشاف البرتغاليون للطريق البحري.

فلقد جلب الجمل نشاطا جديدا للصحراء و سكانها من البربر من خلال انتعاش عدد من المدن التجارية على حواف الساحل الصحراوي، كما سمح أيضا بإقامة اتصال دائم بين جنوب الصحراء و الحضارة القائمة في شمالها.

وإذا تحدثنا عن حضارة شمال الصحراء فإننا نقصد بالطبع الحضارة الإسلامية التي بدأت تبسط جناحيها على شمال إفريقيا منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد. إن الشيء الجدير بالإشارة هو أن الفتوحات الإسلامية التي قادها العرب لم تتمكن من نقل هذا الدين الجديد إلى ما وراء الصحراء. فكان للبدو من بربر الصحراء الدور الرئيسي في الاضطلاع بهذه المهمة ابتداء من القرن الخامس للهجرة/11م. فلقد كانت أول حالات اعتناق الإسلام التي شملت سكان السودان الغربي إنما عن طريق قوافل التجار البربر التي كانت تتردد مابين المغرب و بلاد السودان، ولما كانت الصحراء هي وسيلة الربط الرئيسية بين الإقليمين فقد كان من الطبيعي أن يقوم أهل الصحراء بالدور الرئيسي في إقامة العلاقات التجارية فيما بين شمال الصحراء وجنوبها، ومن ثم في نشر الاسلام .

لقد كان البدو الرحل الصحراويون المعروفون بالملثمين أو قبائل صنهاجة، يقطنون الصحراء الكبرى على امتداد الطريق الممتد من موريتانيا إلى أودغست،( وكانوا يسيطرون على الصحراء ويتحكمون في القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان(خاصة عندما أحكموا سيطرتهم على أودغست سنة 350هجرية/ 961 ميلادية. و كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء عبر طرق ومسالك و واحات ومناجم الملح الذي كان أثمن سلعة يصدرونها إلى بلاد السودان، في رحلة شاقة وصعبة وجمة المخاطر، و لكنها مربحة. فلقد كانت تلك الأرباح كفيلة بأن تجعل التجار يولعون بالدخول إلى أرض السودان.لذلك كثرت الحركة التجارية، واكتظت المدن التجارية بمختلف الجاليات المتاجرة(**[[1]](#footnote-2)**)**.** وباعتناق قبائل صنهاجة الإسلام على يد عقبة بن نافع الفهري12 تحولت إلى صاحبة رسالة حضارية، تمثلت في نشر الإسلام بين الأقوام السودانية الذين كانوا يحتكون بهم في الأسواق والمراكز التجارية المنتشرة في الحواف الجنوبية للصحراء، و على تخوم بلاد السودان.

و هكذا فقد انتشر الإسلام بين الزنوج انتشارا سريعا و هادئا دون اللجوء إلى العنف، فلقد كان التجار المسلمون في تنقلهم بين المراكز التجارية و احتكاكهم بالزنوج، يؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصي وأمانتهم و نظافتهم، وكثيرا ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنوج في الإسلام، ذلك أن عدد كبير من هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعلم.

كما لعب الفقهاء الاباضيون الذين استقروا على أطراف الصحراء في واحات فزان و جبل نفوسة وغدامس، وواحات الجزائر منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، في اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة و زناته للمذهب الاباضي، و تخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء، فانضموا هم أيضا إلى النشاط الدعوي بالموازاة مع نشاطهم التجاري. كما أن قيام دول خارجية في المغرب الأوسط والأقصى كدولة بني مدرا الصفرية بسجلماسة، و دولة بني رستم بتيهرت، كان له أيضا تأثيرا بالغا في انتشار الدعوة الاباضية في صفوف التجار، على الأقل إلى غاية نهاية القرن الرابع للهجرة /10 ميلادي،وهي الفترة التي كانت عواصمهما تمثل أهم نقطتين تنتهي إليهما طرق القوافل التجارية المتجهة نحو أرض السودان، وكانت أسرة بني الخطاب الاباضية في زويلة (فزان) تسيطر على الطرف الشمالي لطريق التجارة الهام الواصل بين ليبيا و حوض بحيرة التشاد. وقد ورد في المصادر الإباضية بأن هناك عدد كبير من أئمتهم و فقهائهم قد زاروا غرب إفريقيا، وقد أسلم على أيديهم عدد مهم من السودان، و خاصة زعماء القبائل و أمرائهم الذين كانوا أكثر احتكاكا بهؤلاء التجار العلماء وأشد المعجبين بهم، لذا تبوؤوا مكانة مميزة لديهم.

و رغم أننا لا نرى اليوم أي آثار للمذهب الاباضي في الصحراء الجنوبية وإفريقيا الغربية، إلا أننا تعتقد بأنها اختفت تحت تأثير حركة المرابطين السنية المالكية.بالإضافة إلى زحف قبائل البدوية لبني هلال العربية على شمال إفريقيا و التخوم الشمالية للصحراء ابتداء من القرن الخامس للهجرة مما أدى إلى أفول نجم المجموعات الاباضية.

وعموما فإن الإسلام ظل ينتشر بين صفوف الشعوب السودانية من التجار أولا، ثم انتقل إلى طبقة الحكام ورجال الحاشية، لكن بوتيرة أقل، بحيث استغرقت هذه الفترة حوالي قرنين من الزمن، أي من القرن الثاني للهجرة/6م إلى القرن الرابع للهجرة/10م. لكن بمجرد انتهاء القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة حتى عرفت أرض الصحراء الكبرى حركة سياسية اتخذت طابعا دينيا، وعرفت على إثرها أرض السودان تسارع في وتيرة أسلام أهلها، ألا و هي حركة المرابطين.حيث عرف الإسلام بفضلها تغلغلا حقيقيا في السودان الغربي والأوسط، فانتشر لأول مرة في منطقة السنغال الأعلى و السنغال، و شواطئ بحيرة التشاد، و اكتسب الدين الإسلامي بذلك اعترافا رسميا في المجتمعات الإفريقية بعدما قبل به الحكام و الأمراء.(**[[2]](#footnote-3)**)

فبعدما تزعم الفقيه السوسي عبد الله بن ياسين قبائل جدالة الصنهاجية ثم دخلت قبيلة لمتونة في دعوته، و غزا قبائل الصحراء ، ودانت له و لدعوته المرابطية، قام خليفتاه يحي بن عمر و أخوه أبي بكر بن عمر بتوجيه دعوتهما إلى داخل الصحراء، حيث توجه أبو بكر بن عمر و ابنه يحي على رأس جيش من المرابطين باتجاه بلاد السودان لنشر الإسلام في مملكة غانة الوثنية.**22** حيث تم إخضاعها الواحدة تلو الأخرى. و كان الأمير أبو بكر يخير أهل البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الحرب إلى أن سقطت العاصمة الغانية كومبي صالح في أيدي المرابطين عام 469ه/1076م، بعدما قتل عدد كبير من سكان غانة السوننكي.

و هنا يجب أن نشير إلى أن المرابطين قاموا بعمل دعوي سلمي داخل مملكة غانة التي سقطت بين أيديهم ولم يرغموا سكان غانة السوننكي على إتباع الدين الجديد كما تدعيه بعض الدراسات الغربية، حيث قام أبو بكر بن عمر بإقامة عدد من الرباطات و المساجد وبالتالي كثر عدد الداخلين إلى الإسلام،كما سمح لملكهم بالبقاء في الحكم تابعا للمرابطين ولم يعزله.

و مهما يكن فإننا يجب أن تعترف بأن موجة اعتناق الإسلام الأولى في بلاد السودان، سواء كانت بدور من التجار أو الفقهاء، أو المرابطين، لم تشمل كل شرائح المجتمع السوداني، أو على الأقل لم يكن إسلام من اسلم منهم إلا إسلاما سطحيا، بينما نجد الفئة التي كانت السباقة لاعتناق الإسلام و فهمته و اقتنعت به، و من ثم وعت الرسالة التي يرمي إليها هذا الدين ، إنما هي الطبقة الأرستقراطية من التجار الكبار و رجال الدولة و في مقدمتهم فئة الملوك والأمراء الذين لم يكتفوا باعتناق الإسلام و الالتزام بتعاليمه فقط، و إنما تحولوا إلى دعاة حقيقيين من خلال مساهمتهم في نشر الإسلام في صفوف رعاياهم الذين بقوا متمسكين بدياناتهم التقليدية القائمة على الوثنية والسحر وعبادة أرواح الأجداد وغيرها. أو أولئك الذين لم يستوعبوا بعد مقاصد هذا الدين الجديد،كما شارك ملوك آخرون في الجهاد ضد الكفار من اجل إعلاء كلمة التوحيد.

**ثالثا:** **دور المرابطين :**

لا شك أن دور التجار المسلمين، قد ساهم بقسط وفير في نشر الدعوة الإسلامية في بلاد السودان الغربي، منذ صدر الإسلام و مجيء أولى القوافل الإسلامية إلى المنطقة. كما أن الفتوحات الإسلامية الأولى في عهد عقبة بن نافع، التي وصلت إلى مشارف الصحراء، و توغل الأمويين بالدين الجديد إلى قلب هذه الصحراء، كان ذا أهمية بالغة أيضا. إلا أن السودان لم يدخل بعد في التاريخ الإسلامي، بالمعنى الذي يؤثر في الحياة العقدية، التي كانت إلى غاية القرن الرابع للهجرة، تسيطر عليها الكثير من المعتقدات البدائية، من عبادة الأرواح و الأجداد المعروفة في إفريقيا السوداء.

كما أن المنطقة بقيت رغم وصول الإسلام إليها، تحتفظ بآثار الديانات السماوية الأخرى التي عرفها السودان الغربي قبل مجيء الإسلام. حيث توجد هنـاك فرضيات بوجود المسيحية واليهودية في بلاد السودان قبل الإسلام، انتقلت من شمال إفريقيا عبر التجارة كذالك ،لكننا لا نملك دلائل قوية على ذلك .

لكن هناك إشارات وفيرة في المصادر العربية، تبين أنه منذ القرن الرابع للهجرة كان الإسلام قد توغل إلى المدن السودانية، و لم يتأخر في التأثير على الأقل في زعماء القبائل السودانية و ممالكها، على غرار غانة و مالي و الكانم بورنو، لكن دون أن يكون قد توغل داخل بقية الشعوب الريفية، التي بقيت مخلصة لدياناتها ومعتقداتها الوثنية، على غرار شعوب الموسي والبامبارا و غيرها**.**

إذا فالإسلام، بقي ديانة المدن والتجمعات الحضرية، كما بقي إسلاما سطحيا، و لم يتوغل جيدا في الحياة اليومية لسكان الصحراء والسودان. إن هذا الوضع تطلب فتحا جديدا للإسلام، أي فتحا حقيقيا يكمل ما كان قد بدأه التجار والفاتحون الأوائل، و يعمل على غرس العقيدة الإسلامية في بلاد السودان، و يخلصها من الشوائب التي بقيت عالقة بها، و إخراجها من الديانات الوثنية، وحتى السماوية كالنصرانية و اليهودية،و بالتالي ربط بلاد السودان بالعالم الإسلامي.

إن هذا الدور العظيم، يتطلب رجالا ذوي عقيدة متينة، و دولة قوية، و هو ما يتوفر في المرابطين، الذين تعد دولتهم أول قوة وحدت المغربين الأقصى و الأوسط، و لعبت دورا كبير في نشر الإسلام في الساحل الإفريقي الغربي و بلاد السودان. و رغم أن دولة الأدارسة التي سبقتهم، قامت بدور مهم في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى، ووصلت إلى سواحلها الجنوبية، مستكملة عملية الفتح. حيث ضمت قبائل الصحراء البربرية تحت لوائها، و وحدتها تحت راية الإسلام، إذ بايعت قبيلة (أوربة) البربرية مؤسس دولة الأدارسة (إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب)، المعروف بإدريس الأول و ذلك عام 172هـ 788م، وتبعته بعض القبائل الأخرى، مثل صنهاجة وهوارة وزناته.

كما أخذ أبو خالد بن يزيد البيعة لإدريس الثاني من القبائل البربرية، وخاضا حروبا كثيرة مع بربر المغرب الأقصى، واستطاع أن يمد نفوذه وسلطانه إلى بلاد المصامدة، وأن يستولي على نفيس وأغمات سنة 197هـ/812م، و بالتالي تمكن من نشر الإسلام بين هذه الشعوب التي كانت ما تزال على دين النصارى واليهود.

إن خضوع البربر لطاعة إدريس الثاني، و توحيدهم تحت سلطانه، زاد في تحول قبائل صنهاجة كذلك إلى الإسلام، الذي كان قد بدأ في عهد عقبة بن نافع، وازداد في عهد الأدارسة، وانتشر بين بربر الصحراء المعروفين بالملثمين في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، وكان لإسلامهم أثر بالغ في تاريخ المغرب و بلاد السودان. إن إسلام الملثمين تمخض عنه قيام حلف قوي ضم القبائل البربرية بزعامة لمتونه، و أخذوا على عاتقهم مهمة نشر الإسلام نحو الجنوب، في الصحراء و بلاد السودان، مدفوعين في ذلك بحماسهم للجهاد، وحداثة عهدهم بالإسلام، و فلستهم القائمة على التشدد في أمور الدين، واحتقارهم حياة الدنيا و العزوف عن ملذاتها. كما ساعدهم على ذلك الضعف الذي بدأ يتسرب إلى مملكة غانة، خلال هذه الفترة، و إغارة أعدائها عليها.

و يؤكد ابن خلدون هذا الرأي بقوله: «أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال، مما يلي البربر كما ذكرنا، وعبروا على السودان، واستباحوا حماهم، واقتضوا منهم الأتوات والجزي، وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به».

وكانت بداية سير الملثمين إلي بلاد السودان عام 433هـ/1042م، على رأس قوة عظيمة باتجاه مملكة مالي، التي كان على عرشها (سوندياتا)، و كان يتزعم الملثمين يحي بن إبراهيم من قبلية جدالة، و هي إحدى قبائل صنهاجة، والتي خلفت لمتونه في قيادة الملثمين. و كان يحي بن إبراهيم شيخا تقيا ورعا، يدعو إلى الحق و يحارب المظالم ، و هو من أهل السنة ، متمسك بمذهب مالك بن انس (**[[3]](#footnote-4)**).

و كان برفقته فقيه من قبيلة جزولة ،يدعى عبد الله بن ياسين الجازولي، الذي استقبلته قبائل جدالة و لمتونة و بالغوا في إكرامه. و كان يعلمهم القرآن، و يلقنهم أصول الدين،و آداب الشرع. كما أخذ بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و يصلح الكثير من أخلاقهم الفاسدة التي ألفوها.إلا أنه لم يلق نجاحا كبيرا في دعوته **([[4]](#footnote-5))**، و كان ذلك نتيجة النزاع القبلي القائم بين القبائل الصحراوية، و طبيعتهم البدوية.

ولما رأى عبد الله بن ياسين إعراض الناس عن دعوته، وإتباعهم لأهوائهم، عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان، التي كان أهلها قد دخلوا الإسلام في ذلك الوقت. إذ كانت أودغست، تحت سيطرة ملك مسلم من صنهاجة ، الذي كان بدوره يسيطر على حوالي عشرين أميرا مسلما من السودان لكن يحي بن إبراهيم لم يتركه وقال له: «إنما أتيت لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي، و ما علي فيمن ضل في قومي» ، ذلك أن قومه لم يكن عندهم من الإسلام إلا الشهادة دون سواها من أركان الإسلام ثم ، قال يحي بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين: "هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة ؟ قال و ما هو ؟ قال ها هنا جزيرة في البحر ،و فيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر ندخل فيها ونقتات من حلالها، و نعبد الله تعالى حتى نموت. فقال عبد الله بن ياسين إن هذا الرأي حسن، فهلم بنا (كذا) فندخلها على اسم الله».

وهكذا توجه عبد الله بن ياسين إلى جزيرة عند مصب نهر السنغال، و بنا بها رباطا**([[5]](#footnote-6))**و انتقل معه عدد من أتباعه المخلصين كان عددهم في البداية سبعين، ثم بدأ يلتحق به الأتباع، يعبدون الله واعتزلوا بدينهم، و كان عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن، وستميلهم إلى الخير، و يرغبهم في ثواب الله، و يحذرهم من ألم عقابه.حتى انتشر أمره بين الناس، واجتمع لديه نحو ألف رجل خلال ثلاثة أشهر من الاعتكاف والعبادة، وهم من أشراف صنهاجة، سماهم المرابطين للزومهم رابطتهم.

بدأ عبد الله بن ياسين بدعوة المرابطين إلى الجهاد في سبيل الله، و كان غرضه في ذلك فتح بلاد السودان، و نشر الإسلام في ربوعه، و ثانيا نشر مذهب الإمام مالك في المغرب، بعدما كان قد استفحل أمر الشيعة مع الأدارسة والفاطميين، و من قبلهم الخوارج فقام بن ياسين بالخروج إلى الصحراء، على رأس قوة عظيمة، قاصدا سجلماسة بعد أن ذاع صيته وصيت أصحابه المرابطين، واستدعاه فقهاء سجلماسة و كتبوا إليه و إلى يحي بن عمر، و إلى أشياخ المرابطين كتابا، يرغبون إليهم الوصول إلى بلادهم ليطهروها مما هي عليه من المنكرات.

فخرج إليهم عبد الله بن ياسين عام 447هـ/1055م ، و دخلها، و قتل من وجده، ففتح مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها، ثم ارتحل إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن، ومدينة شفشاوة بالقوة عام 450هـ/1058م، ثم فتح مدينة نفيس و سائر كدميوة، وأخذت القبائل تتوافد عليه للمبايعة، ثم ارتحل إلى أغمات و فتحها.

لكن أكبر انتصار حققه المرابطون على بلاد السودان و إمبراطورية غانة خاصة، هو الإستيلاء على أودغست التي كانت خاضعة لسلطان إمبراطور غانة، رغم أن ملكها كان مسلما. وكان ذلك عام 446هـ/1054م، حيث انتزعها عبد الله بن ياسين من إمبراطورية غانة، واستباح حريمها، و جعل جميع ما أصاب فيها فيئا، حيث قتل فيها عبد الله بن ياسين رجلا من العرب المولدين من أهل القيروان، معلوما بالورع والصلاح و تلاوة القرآن و حج البيت، يسمي (زباقرة).

و كان سبب نقمة المرابطين على أهل أودغست رغم كونهم مسلمين، هو طاعتهم لصاحب غانة و حكمه. و بدخول المرابطين أودغست، وضعوا أرجلهم على أهم ممالك السودان، وعلى أهم محطة تجارية ذات حيوية اقتصادية و تجمع سكاني هام. كما أصبح المرابطـون متمـركزين على بعد ثلاثة أيام فقط من العاصمة الغانية كومبي، لكن عبد الله بن ياسين قتل ببورغواطة سنة 451هـ1059م، بموضع يسمى (كريفلت)، بعدما كان قد استولى على سجلماسة و أعمالها بالسوس كله، و أغمات و نول والصحراء.

إن الفتح الإسلامي في بلاد السودان لم يتوقف بوفاة بن ياسين، بل أن هذا الأخير ترك عددا كبير من الأتباع والمخلصين لنهجه، والذين واصلوا عملية الجهاد والفتح، و منهم يحي بن عمر، الذي يعد من أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين، وامتثالا لما يأمره به، وأقرب المقربين إليه. كما يعد أيضا من أشد قادته الفاتحين، والذي خلفه بعد مقتله. و منهم كذلك أخوه أبي بكر بن عمر الذي جاء من بعده، فواصل الأخوان الفتح في بلاد السودان، حيث فتحا كومبي، عاصمة غانة عام 469هـ/1076م، وأسلم على أيديهما قسم كبير من سكانها، و دفع الوثنيون منهم الجزية، و منذ ذلك الوقت أخذ الإسلام في الانتشار بين القبائل الإفريقية **([[6]](#footnote-7))**، كما ساهمت بعد ذلك القبائل السودانية، من مانديغ و تكرور و سراكولي، في نشر الدعوة الإسلامية بين شعوبهم، بعدما أسلموا على أيدي المرابطين والتجار المسلمين.

لابد أن نذكّر بأنَّ الفتح المرابطي لبلاد السودان لم يكن غزوا أو احتلالا انتهت آثاره بمجرد انتهاء هذا الاحتلال، وإنما كان حدثا تاريخيا وحضاريا قلب مصير منطقة السودان الغربي ككل،وأحدث تحولا كبيرا في تاريخها. ولا بد من الإشارة أيضا إلى أن هجوم أبي بكر بن عمر على العاصمة الغانية، إنما كان استكمالا لعملية الفتح التي كان قد بدأها المرابطون عام 446هـ/1054م، كما أن شهادة البكري التي تذكر بأنه في سنة 460هـ/ 1068م، أي ثماني سنوات قبل غزو العاصمة الغانية كومبي صالح من طرف المرابطين،كانت هناك مدينتان، واحدة للمسلمين وأخرى للكفار، وأن للمسلمين مسجدا في مدينة الملك يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين، وهو على مقربة من مجلس حكم الملك.كما أنه لم يكن يقتصر الإسلام على عامة الناس، بل كان بعض ملوك الإمارات التابعة للإمبراطورية الغانية يعتنقون الإسلام لكنهم يخفون إسلامهم، مثل ملك سمغارة(أو بغامة) وهو"فنمر بن بسي".

وهناك من الملوك الذين أعلنوا إسلامهم بل وتحالفوا مع جيش المرابطين وأعلنوا راية الجهاد ضد غيرهم من السودان الوثنيين أمثال ملك التكرور "وارديابي" وابنه "لبي بن وارديابي" رغم أنهما كانا تحت وصاية ولو بعيدة لملك غانة.

وبعد سقوط غانة يكون ملوكها أنفسهم هم الذين حملوا راية الجهاد ونشر الإسلام في صفوف السودان(، فقد ذكر ابن سعيد أن ملك غانة كان كثير الجهاد للكفار،وأصبح شعب السراكولي (الذي كان قبل غزو المرابطين يمثل العنصر الوثني بأتمّ معنى الكلمة) من أحسن المسلمين في كل السودان الغربي، وأخذ على عاتقه مهمة نقل العقيدة الإسلامية إلى عدة مناطق في السنغال والساحل الأطلسي ومسينا**.**

إذا فحركة المرابطين في السودان الغربي لم تكن حركة استعمارية استعملت الحديد والنار لفرض الإسلام على القبائل الصنهاجية أولا ثم على السوننكي ثانيا.ولم تكن أيضا حركة استعمارية جذبتها الرغبة في السيطرة على مناجم الذهب كما يزعم بعض المؤرخين**،** وإنما كانت عبارة عن جزء من الحركة التي بدأ يعرفها السودان الغربي، والتي ميزتها ظاهرة انتشار الإسلام التي أخذت تعرف تشعبا واتساعا في أرض السودان، بل وشملت حتى أراض كانت بعيدة عن تأثيرات المرابطين، مثل كوكو وبلاد الهوسا، وأرض الكانم في السودان الأوسط(.

إن الفتح المرابطين للسودان الغربي قد أنهى مرحلة طويلة من التاريخ كانت تسيطر فيها مملكة غانة على أحداث السودان الغربي،كما أدى إلى الانتصار السياسي للإسلام على منطقة الساحل الواقعة بين نهري النيجر والسنغال. فقد انتقل الإسلام من كونه ديانة خاصة بالتجار القادمين من الشمال وبعض السكان المحليين المحتكين بهمإلى ديانة الملوك، حيث انجذبت إليه بعض العائلات الملكة في السودان الغربي متأثرين بالمكانة التي أصبح يتميز بها أتباع هذا الدين، وكذا بالدعاية القوية التي كان يقوم بها أصحاب عبد الله بن ياسين على ضفتي النيجر والسنغال.كما تحول ملوك السراكولي من أبطال وثنيين إلى دعاة ومجاهدين في سبيل الله، ومتحالفين مع المرابطين ضد الشعوب الوثنية.

ورغم أن الوجود المرابطي في غانة لم يدم طويلا، بحيث لم يتجاوز خمسة عشر سنة، إلا أنه غيّر الطابع السياسي لملوك غانة، إذ أصبحوا يعلنون تبعيتهم السياسية للخليفة العباسي في بغداد مباشرة، وأصبحوا يلبسون العمائم اقتداء بالخلفاء المسلمين. بل أكثر من ذلك أصبحوا يدعون النسب الشريف إلى ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم، كمحاولة الانتساب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، حتى أصبحت كلمة سوننكي وهو اسم الشعب الذي ينتمي إليه ملوك غانة، مرادف لكلمة داعية عند كثير من قبائل الماندينغ.

ولم يتوقف التأثير المرابطي في السودان الغربي بمجرد اعتناق ملوكه للإسلام أو سقوط دولة المرابطين، أو حتى عندما استعادت غانة استقلالها، بل استمر الدعاة الصنهاجيون، والتجار في أداء نشاطهم إلى أطول مدة، حيث أشار البرتغاليون الذين استعمروا بعض المناطق في غرب إفريقيا خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين /15و16 للميلاد، أي بعد سقوط دولة المرابطين بأكثر من ثلاثة قرون، إلى وجود الدعاة من صنهاجة اللثام، ومن العرب الذين كان لهم تأثير كبير بين التكرور والجولوف والماندينغ.

إن مجهودات المرابطين في نشر الإسلام كانت في البداية فردية وبسيطة، ثم تطورت إلى جهود جماعية خاصة عندما تعلق الأمر بنشره بين سكان المملكة الغانية، حيث اشترك في ترسيخه الدعاة المرابطين الذين كان يرسلهم الشيخ عبد الله بن ياسين إلى القبائل الزنجية بعد تدريبهم في الرباطاتوعلى أيديهم أسلم ملك التكرور "وار جابي" وملك سلي الذي حسن إسلامه.فكان هؤلاء الدعاة المرابطون يتعقبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الإسلام وتعاليمه. واشترك فيها أيضا ملوك السودان أنفسهم وكذا الأسر الحاكمة، خاصة بعد الاستيلاء على العاصمة كومبي وإسلام أهلها، وتحمّس ملكها تنكامين لنشر الإسلام.

كما لا يجب أن نغفل الدور الذي الاقتصادي للمرابطين في السودان الغربي. فقد تمكن المرابطون من السيطرة على الطرق التجارية، وفرض الأمن على الطرق التجارية، فازدهرت التجارة بين الشمال وبلاد السودان، فكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية، ورخاء متصل وعافية وأمن. وانتقلت مع التجارة الأفكار والتعاليم الإسلامية، وأصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة الإسلامية. فكان التجار من الفقهاء والدعاة، حيث أبهروا ملوك السودان الوثنيين بأخلاقهم ومكانتهم وخبرتهم بالمال والسياسة والإدارة، فقربوهم إليهم، وأصبحوا من حاشيتهم المقربة، ومن موظفيهم السامين. وعن طريقهم دخل الإسلام إلى الطبقة الارستقراطية والملكة في بلاد السودان.كما انتشر الإسلام في صفوف التجار السودان، حيث أننا نجد أن أقدم المسلمين السودان هم شعوب الديولا، والونجارا الذين يعتبرون تجارا.

وبفضل التجارة نشطت قوافل الحج إلى الراضي المقدسة، فأصبحت الرحلات إلى الحج من أشهر ما أصبح يعرف به ملوك السودان، بل كتب عنها المؤرخين العرب الكثير من الحكايات ورويت عنها الأساطير.وقد كانت أولى رحلات الحج هذه، هي تلك التي قام بها الملك المالي" برمندانة" في أواخر القرن الخامس للهجرة، أي بعد الغزو المرابطي لغانة بفترة قصيرة فقط(**[[7]](#footnote-8)**)**.**كما ازدهرت في عهد المرابطين المراكز التجارية في غرب إفريقيا، والتي أثرت كثيرا على الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي، باعتبارها لم تكن تقتصر على الدور التجاري فقط، وإنما تحولت إلى مراكز ثقافية ذائعة الصيت في العالم الإسلامي ،مثل أودغست، غانة، جني وتمبكتو. ولعل أهم نتيجة تركها الفتح المرابطي لغانة بالإضافة إلى انتشار الإسلام، هو تفكك الإمبراطورية الغانية وانفصال الممالك التابعة لها، واستقلال بعض الأقاليم والقبائل الزنجية عنها بالرغم من عودة السوننكيي إلى السلطة، ويعود ذلك إلى عدة عوامل أهمها:

**أولا:** انتشار الهجرة إلى خارج غانة، وخاصة بالنسبة للسكان الوثنيين الرافضين للإسلام، والذين عندما اقتنعوا بعدم جدوى الثورة ومقاومة المرابطين فضلوا الهجرة، وكانت هجرتهم نحو الضفة اليسرى لنهر النيجر، و ذلك بحثا عن أراض أكثر خصوبة وحرية.

**ثانيا:** انتشار الفوضى داخل مملكة غانة، إذ بمجرد انهيار المرابطين واستعادة غانة استقلالها حتى عادت الروح القبلية والشقاق، وخاصة في ظل قلة الولاء لأسرة السوننكي الحاكمة، وانتشار الفوضى وقطاع الطرق، الذين أصبحوا يستولون على السكان ويبيعونهم في الأسواق(**[[8]](#footnote-9)**).فبعدما سيطر المرابطون على الأوضاع في السودان لمدة عشر سنوات معتمدين على الجهاد والرباطات والدعوة.بدأت تفقد سيطرتها على، وانبثقت الحزازات القبلية التي كانوا قد أضعفوها من قبل، فبدأت قبيلة مسوفة بالتمرد على رئاسة أي زعيم من لمتونة، ثم انتقل الأمر إلى جدالة(**[[9]](#footnote-10)**).ثم انتهزت دويلات السودان هذا الخلاف الناشب بين قبائل المرابطين لتعلن استقلالها، حيث استقلت مملكة غانة التي يذكر الإدريسي ملكها بأنه أصبح مستقلا ويخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين الخليفة العباسي (**[[10]](#footnote-11)**)**.**فكان لهذان العاملان دور كبير في تغيير الخريطة السياسية لمنطقة النيجر الأعلى والسنغال فظهرت عن تفكك مملكة غانة ممالك سودانية جديدة خرجت من رحم غانة، لكنها نافستها على زعامة السودان الغربي، الذي ظلت متربعة على عرشه لمدة أكثر من سبعة قرون بدون منازع.فلقد كان القرن الخامس للهجرة/11م، هو قرن التحولات الكبرى بالنسبة لمنطقة النيجر والسنغال العلويين. فبالإضافة إلى انتشار الإسلام في المنطقة، فانه شهد ميلاد قوى سياسية جديدة تمخضت عن سقوط غانة، حيث انتقلت السيادة من السوننكي إلى الصوصو، والمالنكي، والسونغاي والتكرور.

**رابعا: اعتناق ملوك السودان للإسلام و دورهم في نشره:**

لقد عرف السودان الغربي و الأوسط ممالك وثنية قوية قبل انتشار الإسلام في أرضهم، وكانت هذه الممالك الوثنية على قدر كبير من التنظيم والتطور، لذلك كانت لملوكها علاقات تجارية و سياسية متينة مع دول المغرب الإسلامي. فمنذ أيام دولة بني مدرار في سجلماسة كان أئمتها يربطون علاقات تجارية منتظمة مع السودان الغربي منذ القرن الثاني للهجرة/8م.كما أن المصادر الاباضية تخبرنا بأن أئمة الرستميين بتيهرت قد ربطتهم علاقات دبلوماسية وتجارية مع مملكة غانة الوثنية آنذاكبالإضافة إلى ارتباطهم بتجارة مع مملكة الكانمو مع مملكة سونغاي.

ولهذا أمكننا القول بأن ملوك السودان كانوا على اتصال واحتكاك دائم بالمسلمين المغاربة منذ وقت مبكر، وهو ما أدى إلى حدوث تعايش كبير بين هؤلاء الملوك والجالية المسلمة إلى درجة أن المؤرخ و الجغرافي الأندلسي أبا عبيد البكري ذكر بأن مملكة غانة الوثنية كانت تضم مدينتين واحدة يسكنها المسلمون، و يوجد بها إثنى عشر مسجدا، و بها الأئمة و الراتبون و المؤذنون و الفقهاء و حملة العلم، و أخرى خاصة بالملك و تحتوي على مسجد واحد يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين(**[[11]](#footnote-12)**).

وبذلك تكون الجالية المسلمة قد أثرت كثيرا على هؤلاء الملوك الوثنيين، حتى أصبحوا معجبين كثيرا بهم و يقدرونهم ويقتدون بهم، بل ويعتمدون عليهم في إدارة شؤون دولتهم، حيث أن البكري يذكر بأن ملك غانة كان يتخذ ترجمانه و بيت ماله من المسلمين، وأن أكثر وزرائه كانوا من المسلمين**.** كما أصبحوا يتشبهون بهم لحسن أخلاقهم و صدقهم و أمانتهم وحسن معاشرتهم، فأصبح ملوك غانة يقتدون بالمسلمين حتى في لبسهم المخيط عكس ما كان عليه سائر الرعية من لبس الملاحف القطنية والحرير**،** فكان حري بهم أيضا أن يتبعوا دينهم أيضا.

ولا يعني ذلك أن هؤلاء الملوك كانوا بالضرورة مسلمين شديدي الورع أو عميقي الإسلام، فقد كان عليهم أن يراعوا أيضا الأعراف المحلية والمعتقدات التقليدية لأغلبية رعاياهم غير المسلمين الذين كانوا يرون في ملوكهم تجسيدا أو واسطة لقوى عليا أسمى من الطبيعة، كما أنه لم يكن هناك من الملوك من له السلطة لفرض الإسلام أو الشريعة الإسلامية دون التأثير بذلك على ولاء غير المسلمين له. وهذا ما يفسر بقاء الشعائر و الطقوس الوثنية في بلاطات ملوك مسلمين ورعين أمثال منسا موسى ملك مالي أو الأسكيا الحاج محمد توري ملك سنغاي.

إن أول من اعتنق الإسلام من ملوك مالي حسب البكري يدعى المسلماني، والذي أسلم على يد أحد المسلمين الذين كانوا يعيشون في بلاده، و هو من قراء القرآن المعلمين للسنة في أرض مالي، فقد أجدبت الأرض عاما بعد عام، فقدم سكان البلد القرابين لآلهتهم حتى كادوا يفنونها ، لكن دون جدوى، إلى أن شكا ملكهم أمره لهذا الضيف المسلم الذي اقترح عليه أن يؤمن بالله ويقرّ بوحدانيته و بمحمد رسول الله، مقابل أن يدعو له ربّه لفك عنهم كربتهم. فأسلم ملك مالي وأخلص نيته، و تعلم كتاب الله و شرائعه و تطهّر، و صلى ليلة الجمعة إلى جانب الرجل المسلم وهو يدعو الله طوال الليل، فما إن حلّ الصباح حتى سقاهم الله مطرا. فأمر الملك السوداني بكسر الدكاكير التي كانوا يعبدونها، و إخراج السحرة من بلاده، وصحّ إسلامه، و أسلمت عشيرته وحاشيته، بينما بقي أهل مملكته مشركين(**[[12]](#footnote-13)**).

إن البكري لم يذكر لنا اسم ذلك الفقيه المسلم الذي اسلم على يديه ملك مالي أو( ملل حسب ذكر البكر)، لكننا نجد في المصادر الإباضية رواية مشابهة لرواية البكري لكنهم ينسبون أحداثها لأحد أئمتهم و هو علي بن يخلف، إلا أنهم يقولون بأنها حدثت مع ملك غانة و ليس مع ملك مالي(**[[13]](#footnote-14)**).و هذا يعود ربما إلى كون مالي كانت تابعة خلال الفترة التي جرت فيها الأحداث إلى إمبراطورية غانة.كما أن مملكة غانة كانت مشهورة لديهم بحكم العلاقات التجارية والدبلوماسية التي كانت تربطها بهم(**[[14]](#footnote-15)**). فابن الصغير يذكر بأن الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب أوفد سفيرا إلى ملك السودان يدعى محمد بن عرفة حاملا معه هدية. **و** رغم أن ابن الصغير لم يذكر اسم الملك السوداني لكن فترة حكم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (180و220هجرية/796 و 844 ميلادية) توافق فترة وجود إمبراطورية غانة كأعظم دولة في السودان الغربي بينما لم تكن قد ظهرت بعد مملكة مالي. ما يجعلنا نميل إلى القول بأن الملك الذي زاره الإمام الرستمي علي بن يخلف هو ملك مالي وليس ملك غانة كما تهب إليه المصادر الاباضية.

و على كل حال فإن هذه الرواية تبين لنا دور الفقهاء المسلمين في إسلام ملوك السودان وحاشيتهم، و درجة تأثيرهم فيهم و ثقة أولائك الملوك بهم، كما تبين لنا من جهة أخرى أن الملوك و حاشيتهم المقربين كانوا أول من اعتنق الإسلام، بينما تأخر إسلام رعيتهم، أو لم يكن بنفس درجة ملوكهم. كما يشير البكري أيضا إلى ملك إمارة الوكن بغانة و هو فنمر بن بسي الذي كان مسلما و لكنه كان يخفي إسلامه عن رعيته،و هو ما يؤكد ما ذكرناه سابقامن أن ملوك السودان كانوا يراعون رغم إسلامهم مشاعر و معتقدات أغلبية رعاياهم المتمثلة في عباد الأوثان، و القوى السحرية، وأرواح الأجداد، و غيرها من المعتقدات التقليدية السائدة.

و منه يمكن القول بأن الإسلام في السودان كان في البداية ديانة الملوك والطبقة الأرستقراطية، بينما الطبقات الشعبية العامة لم تكن قد استوعبت بعد تعاليمه و بقيت وفية لوثنيتها، و هو ما جعل الملوك يضطلعون بمهمة نشر الإسلام في أوساط شعوبهم، وجعلهم يتحولون إلى دعاة حقيقيين، و أصحاب رسالة حضارية ورثتها بعدهم الأجيال المتعاقبة من ملوك السودان المسلمين، رغم أنهم لم يكونوا من الفقهاء الكبار، وأن كل ما كانوا يعلمونه من هذا الدين كانوا يتلقونه من الوافدين عليهم من رجال الدين،و كان منهم من رفع راية الجهاد في سبيل التمكين للدين الإسلامي في ديار السودان. ولقد كانت أسرة ندياي التكرورية من أوائل الأسر الحاكمة في السودان الغربي التي اعتنقت الإسلام، فقد اعتنقته في وقت مبكر، و بدون إكراه، و حتى قبل الغزو المرابطي لغانة، والتي فهم ملوكها الإسلام و اندمجوا بسرعة في حركته التي شملت السودان الغربي منذ القرن الخامس للهجرة بقيادة المرابطين، حيث دخل ملكهم " لبي بن وارديابي" أو "وارجابي" في حلف مع المرابطين ضد كفار غانة **([[15]](#footnote-16))**.

و هكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي و الأوسط مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي و الأوسط ، و هي المرحلة التي لعب فيها ملوكهم الدور الأساسي في التمكين لهذا الدين و إرساء أسس الحضارة الإسلامية في هذه الأرض.

و كان لظهور طبقة من العلماء و رجال الدين المسلمين الذين ينتمون إلى أصل سوداني حدثا مهما في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، حيث بدأ ينتشر على يد أناس من أهل البلاد يعرفون اللغات والأعراف والمعتقدات المحلية، و امتد تأثير هؤلاء إلى غاية السودان الأوسط ، حيث كانت المنطقة الممتدة من بحيرة التشاد إلى غاية حوض النيجر الأوسط و خاصة إقليم الهوسا تشكل منطقة صعبة لانتشار الإسلام إلى غاية القرن الثامن للهجرة/14ميلادي. حيث استقبلت موجات من المسلمين السودان من جماعة الونجارة (ونغارة) التجار الذين تمكنوا من نشر الإسلام بين التجار خاصة و بين الطبقات الحاكمة ، ومنها قصر الملك "ياجي" الذي أصبح مسلما متشددا يرغم رعاياه على إقامة الصلاة، و أخذت تدخل إلى بلاده كتب أسلامية حملها معهم الفلاتة وتضم علم الكلام و أصول اللغة.

أما في مملكة سونغاي فقد أسلم الملك "ديا أكوسي" الذي استقر في غاو حوالي عام 4001 هجرية/ 1010م، لكن في تلك الفترة أيضا مازال الإسلام يمس فقط العائلة الملكية و الطبقة الأرستقراطية التي يبدو أنها أعجبت كثيرا بسلوك التجار المسلمين الذين كانت تعج بهم عاصمتهم، و بهيئتهم و طريقة لباسهم و أحصنتهم ، أكثر من شيء آخر حسبما يذهب إليه كورنفان.

حسب المؤرخ الأندلسي أبي عبيدالبكري فإن ملوك التكرور المنتمين إلى أسرة ندياي كانوا أول من اعتنق الإسلام من ملوك السودان.و حسب المؤرخ الانجليزي سبنسر تريمنغهام (Spencer Trimingham) فإن ذلك يعود إلى كون عبد الله بن ياسين اختار منطقة الساحل الجنوبي لنهر السنغال موقعا لإقامة رباطه الشهير ، و هو ما أدي إلى انتشار التأثير الإسلامي في هذه المنطقة منذ وقت مبكر. لذلك اعتنق الملك التكروري وارديابي الإسلام لما وجد في عقيدته من جاذبية و تجانس **،** بالإضافة إلى ما كان يمثله له الإسلام من رقي اجتماعي و تفتح على العالم، فوجدت بذلك دعوة عبد الله بن ياسين استجابة واسعة من أهل التكرور و في مقدمتهم أسرة آل وارديابي، وخاصة الملك ،و ذلك قبل أن يستولي ابن ياسين على مدينة أودغست.

و قد كان لابنه" لبي بن وارديابي"من بعده دورا كبيرا في نشر الإسلام من خلال تحالفه مع جيش المرابطين في حربهم ضد خصومهم من جدالة و المرتدين عن دعوتهم و ذلك عام 448هـ/1056م ، في معركة تبفريلي ، و هي المعركة التي قتل فيها الزعيم اللمتوني يحي بن عمر**([[16]](#footnote-17))**،و بالتالي فإن اسم مملكة التكرور كان أكثر الممالك شهرة عند المصادر العربية،بسبب أسبقية شعبها في اعتناق الإسلام، وظلوا من أشد الشعوب تمسكا بتعاليمه.

إن ملوك و على رأسهم "وارديابي" واصلوا عملية الدعوة داخل مملكتهم، وحسب البكري دائما فإن مدينة التكرور كان أهلها السودان على ما كان عليه سائر السودان من المجوسية و عبادة الدكاكير**([[17]](#footnote-18))**إلى غاية أن تولى الحكم فيهم وارجابي سنة432هـ/1041م، حيث اعتنق الإسلام وأقام في مملكته الشريعة الإسلامية ، و فرض على شعبه اعتناقه**.** و بهذا أصبحت جميع المدن والإمارات الهامة التابعة لمملكة التكرور و الممتدة من التكرور إلى غاية سيلا(غالام) كلها مسلمة على يد الملك وارديابي بن رابيس، كما أن ملك سيلا رفع هو بدوره راية الإسلام في إمارته وأصبح يحارب كفارها الساكنين في مدينة قلنبو.

وفي الفترة مابين القرنين الخامس والسابع للهجرة/11 و 14 للميلاد زحف شعب الولوف أو( الجولوف)على منطقة التكرور، و أصبح يشكل معظم سكانهاإلى أن أسس أحد رجال الدين التكرور يدعى" نديا ديان ندياي"إمارة الجولوف، و التي بدأت تفقد تدريجيا الآثار الإسلامية التي عرفها ملوك التكرور الأوائل،لكنخلال منتصف القرن السابع للهجرة/ 13 للميلاد قام إمبراطور مالي المشهور "سوندياتا كيتا" بإعادة فتح مملكة التكرور من جديد التي يبدو أنها كانت قد تحالفت مع ملك مملكة الصوصو الوثني" سومنغورو كانتي".

أما بالنسبة لملوك الماندي أو ما يعرف بمملكة ملل، أو مالي، فإن أول من أسلم من ملوكها فكان يدعى " المسلماني" حسب البكري و "برمندانة" حسب ابن خلدون،والذي أسلم كما رأينا على يد أحد فقهاء الاباضية في منتصف القرن الخامس للهجرة/11م، و ينتمي هذا الملك إلى أحدى الأسر المالنكية المشهورة في منطقة النيجر و السنغال العلويين، والتي يعود لها الفضل في تأسيس مملكة مالي الإسلامية، و التي حكمتها مابين القرنين الخامس والتاسع الهجريين/11 و15، وهي عائلة كايتا. التي استقرت على ضفاف نهر السنكراني (أحد فروع النيجر) والتي لعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام في مملكة مالي والسودان الغربي ككل)**[[18]](#footnote-19)**(.

لقد ذكر ابن خلدون بعض أسماء الملوك من هذه العائلة الذين أدوا فريضة الحج، و منهم الملك برمندانة الذي كان أول من أسلم و أول من حج منهم، ثم اقتفى سننه في الحج ملوك مالي من بعده، كما حج منهم الملك منسا أولي ابن ماري جاطة (سوندياتا) **أ**يام الظاهر بيبرس، وحج بعده مولاهم ساكورة الذي كان قد أصبح ملكا بعدما استولى على حكم مالي، بالإضافة إلى الملك الحاج منسا موسى.

ولقد تحدثت المصادر العربية كثيرا عن الدور الذي لعبه ملك مالي منساموسى أو(كونكو موسى) في نشر الإسلام في إمبراطوريته، و اهتمامه البالغ بتطبيق شعائر الإسلام بين رعيته، و كذا اهتمامه بأداء فريضة الحج حتى لقب بالملك الحاج، حيث كان عندما يخرج إلى الحج يقوم ببعض الأعمال الجليلة حتى يتقبل منه الله حجه، مثل بنائه لمساجد عديدة كمسجد تمبكتو، دوكوري، كوندام، و مسجد ديري، بالإضافة إلى تسخيره لإمكانيات ضخمة جدا للحج ، فكان يحمل معه في تلك الرحلات المقدسة،قوات عسكرية كبيرة،و عدد كبير من العلماء و القضاة،و الخدم والجواري، و كميات كبيرة جدا من الذهب إلى درجة كانت تؤدي إلى انخفاض قيمة ذلك المعدن النفيس في القاهرة لما كان يحل بها.

و من مظاهر تدين هذا الملك وحرصه على تطبيق شرائع الإسلام تلك الحادثة التي حصلت له بالقاهرة هندما قصدها في طريقه إلى الحج، فبينما كان الملك منسا موسى في القاهرة عام 724هـ/1324 فبعث إليه السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون شخصا يستدعيه إليه و عندما وصل إلى قصره رفض منسا موسى السجود أمام ملك مصر، وقال:« أنا مسلم و لا أسجد إلا أمام الله».

كما تحدث الملك منسا موسى مرة و هو بالقاهرة مع الفقيه "ابن أمير حاجب" في نفس الزيارة عن عاداتهم بمالي و المتمثلة في أنه إذا نشأ لأحد من رعيته بنتا حسناء قدمها للملك أمة فيملكها بغير زواج مثل ملك اليمين، و عندما نهاه عن ذلك ابن أمير حاجب انتهى عنه وأعلن ترك ذلك و رجوعه عنه رجوعا كليا ، كما عرف عنه جهادهفي سبيل الله ، حيث كان يحارب طائفة من الشعوب الوثنية المتوحشة تعرف بالدمادم، وهم يشبهون بالتتر، و يعرفون أيضا باللملم.

وخلال القرن الثامن للهجرة/ 14م زار ابن بطوطة مملكة مالي التي كان يحكمها آنذاك شقيق الملك منسا موسى وهو منسا سليمان، فنقل إلينا وصفا دقيقا عن هذا الملك الذي كان أشبه بسلاطين المسلمين و خلفائهم من خلال تدينه ، و حبه للعدل و تقربه من الفقهاء والعلماء وتعظيمه لهم . و كان حريصا على الصلاة ، حيث ذكر ابن بطوطة أنه إذا كان يوم الجمعة، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد فإنه لن يجد أين يصلي لكثرة الزحام، كما أضاف عنه بأنه كان يأمر بربط أبنائهم يوم العيد بسبب عدم حفظهم لآية من القرآن.

وعُرف عن ملوك مملكة سونغاي أيضا تمسكهم بالدين الإسلامي ونشره في أركان مملكتهم،  فلقد كانوا يخرجون كل سنة خارج مدينة جاو لملاقاة الحجاج و مدهم بالكسوات و اللباس، ويسألونهم الدعاء لهم، و يتبركون بهم.ومن مظاهر جهادهم في سبيل إعلان كلمة هذا الدين في إفريقيا جنوب الصحراء ما تم العثور عليه في سنة 1939م في بلدة "ساني" ـ و هي تبعد عن مدينة جاو بأربعة أميال ـ حيث وجدت بها لشواهد لقبور ملكية يعود تاريخها إلى بداية القرن السادس للهجرة/13م ، كتب عليها عبارة( هنا جثمان الملك الذي دافع عن دين الله و يرقد الآن في رعايته).كما كتب تحت هذه العبارة سنة 494هـ/1100م، و كتب أيضا اسم أبي عبيد الله محمد، ثم أضيفت إليه كلمة " إن الملك مات من أجل انتشار الإسلام في جاو".

كان ملوك جاو أشد الملوك اقتداء و تشبها بالملوك المسلمين، حيث كان إذا ولي منهم ملك قدّم إليه خاتم و سيف و مصحف يزعمون أن الخليفة أمير المؤمنين في المشرق الإسلامي هو الذي بعث به إليه **([[19]](#footnote-20))**،في محاولة لعطاء حكمهم الصبغة الشرعية.فنجد أن ملك سونغاي في عهد الاسقيين الحاج محمد التوري ، بعد سقوط دولة المماليك في مصر حاول أن يأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين، و هو المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب، و ذلك خلال زيارته للبقاع المقدسة بغرض الحج في أواخر عام 900 هجرية /1494م عندما مرّ بمصر، وكانت الخلافة آنذاك ما تزال للعباسيين قبل أن يأخذها منهم السلطان العثماني سليم الأول. فاجتمع الاسقيا الحاج محمد التوري بالخليفة العباسي المتوكل الثاني، و طلب منه أن يأذن له بإمارة السودان، و يكون خليفته عليها، وأدعى الحاج محمد توري بأن الخليفة العباسي جعله نائبا له على ما وراءها من المسلمين. ولما عاد ملك سونغاي إلى بلده أقام حكمه على قواعد ا لشريعة الإسلامية.

أما أمير مدينة جني الواقعة على ضفاف نهر النيجر الأعلى، و التي تأسست في منتصف القرن الثاني للهجرة/الثامن ميلادي، فإن أميره المسمى" كنبر"هو أول من اسلم من ملوكها خلال أواخر القرن الخامس للهجرة/11م، و كان ذلك في عهد المرابطين و حذت حذوه رعيته التي اكتمل إيلامها في نهاية القرن السادس للهجرة/12م ،وعندما عزم هذا الملك على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة، فحصل منهم على أربعة آلاف و مائتان عالما فأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعوا الله بثلاث دعوات لتلك المدينة، و هي أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة و يسرا حتى ينسى وطنه ذلك،و أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحوا بها، فقرؤوا الفاتحة في هذه الدعواتكما قام بتخريب دار السلطنة و حولها إلى مسجد، كما بنى بيوتا حوله.

يرجع إسلام أول ملوك السودان الأوسط إلى القرن الخامس للهجرة/11م مع تحول ملك الكانم إلى الإسلام، إذ دخل أولا الإسلام إلى إقليم بورنو على يد "محمد بن ماني " الذي عاش خمس سنوات في بورنو في عهد الملك بولو، و أربع عشرة سنة في عهد الملك حمادي ، و ضم بورنو إلى الإسلام بفضل الملك حمادي و نشر الملك محمد بن ماني الإسلام في الخارج. و تجدر الإشارة إلى أنه في عهد أسلاف حمادي(بداية القرن الخامس للهجرة/11م) كان يعيش في بلاطهم عدد من علماء الدين المسلمين، يلقنون الحكام أنفسهم تعاليم الإسلام، و يدرسون معهم آيات من القرآن، و لكن لا احد من الملوك كان يجاهر بإسلامه. لذلك لما تحدث عنهم البكري (منتصف القرن الخامس للهجرة/11م) و صف ملوك كانم بأنهم سودان مشركون.

مهما يكن فإن هذه النماذج من الملوك السودانيين الذين تقمصوا دور الدعاة في بلادهم، كانوا في اغلبهم على قدر مهم من الوعي الديني، و فهم للإسلام، رغم أنهم لم يكونوا يرقون إلى درجة الفقهاء أو العلماء ، ولكنهم كانوا يتميزون بقوة إيمانهم و بحماسهم ، و بعضهم بلغ درجة التعصب لهذا الدين، و فهموا دورهم باعتبارهم ولاة أمور يقع على رقابهم مهمة تبليغ هذا الدين والحفاظ عليه، فراحوا يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ، و يحتكمون شريعة الله ، و يقيمون العدل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ويدعون إلى الله و يجاهدون في سبيله.لكننا نرى بأن بعض الملوك الأوائل الذين دخلوا الإسلام كان منهم من كان قليل المعرفة بالإسلام، و منهم من كان يخفي إسلامه عن قومه، أو تجده متسامحا بدرجة كبيرة مع رعاياه غير المسلمين فكانوا يراعون تقاليد شعبهم الوثنية و موروثاتهم الدينية القائمة على السحر و عبادة الأوثان و تقديس أرواح الأجداد، رغم ما اشتهر عن هؤلاء الملوك من إيمان و تقوى، فلقد كان هؤلاء الملوك يعرفون كيف يحافظون على تماسك مجتمعاتهم التي كانت تتحكم فيها الانتماءات العشائرية و الطائفية أكثر من أي عامل آخر.

لدينا في إمبراطور مالي سوندياتا كيتا نموذجا على ذلك التسامح الذي كان يبديه إزاء مواطنيه من الوثنيين، و هو ما فتح المجال أمام بعض المؤرخين الغربيين للتشكيك في مسألة أسلامه أصلا رغم شهادة ابن بطوطة بإسلامه، و كذا تعاليمه و شرائعه التي كانت تحمل الكثير من تعاليم الإسلام في طياتها. كما ورث ذلك الجيل من الملوك خلفاء أعطوا نماذج هائلة في للملوك المسلمين الداعين لدينهم و المجاهدين في سبيله، خاصة خلال فترة الاحتلال الأوربي لإفريقيا الغربية أين ظهر لنا في مسينا الحاج عثمان بن فودي أو (دان فودي) الذي أعان عن مشروعه سنة 1223 هجرية/ 1809 م، فأعاد بعث الإسلام ونشره بين القبائل الوثنية، في شتى أرجاء القارة السوداء، كما عمل على إعادة بناء الدولة الإسلامية من جديد، وتوسيع رقعة الإسلام بالجهاد ضد القبائل الوثنية التي اجتمعت على حرب الإسلام ودعوته الجديدة، واتبع إستراتيجية الجهاد على عدة محاور، وضم الشعوب الإسلامية تحت رايته، فضم إليه عدة شعوب وقبائل مسلمة كانت متناثرة ومختلفة فيما بينها، و توسع في الغرب والجنوب الغربي، حيث قبائل (اليوروبا) الكبيرة، فدانت له هذه القبائل ودخلت في دعوته، وأخذت دولته الإسلامية في الاتساع شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت أقوى مملكة إسلامية في إفريقيا وقتها. بالإضافة إلى حركة تلميذه الحاج عمر طال(1799ـ 1864م/1214ـ 1281هـ) في نيجريا، و الشيخ ساموري توري و غيرهم، الذين يعود لهم الفضل ليس في نشر الإسلام فقط بل أيضا في نشر الوعي الوطني و القومي في إفريقيا، وفي الحفاظ على الشخصية الإسلامية لإفريقيا السوداء جنوبي الصحراء.

1. ) نفسه، ص 280.( [↑](#footnote-ref-2)
2. () محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 91 [↑](#footnote-ref-3)
3. () البكري، المصدر السابق،164, [↑](#footnote-ref-4)
4. () **السلاوي (أبو العباس الناصري)،** الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق:جعفر و محمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج1، ص106 [↑](#footnote-ref-5)
5. () الرباط هو مكان للعبادة يلجأ إليه أهل الزهد و التقشف و الجهاد في سبيل الله، منقطعين للعبادة و مقارعة العدو(جودت عبد الكريم)، الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب، مرجع سابق، ص 264. حول هذا الموضوع، انظر: **محمد الأمين بلغيث**، الحياة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1423/1424هـ. [↑](#footnote-ref-6)
6. () قداح(نعيم):المرجع السابق،ص86. [↑](#footnote-ref-7)
7. () ابن خلدون، المصدر السابق،ص495. [↑](#footnote-ref-8)
8. ()Tidiane (N’diaye) ,Op.Cit, p28. [↑](#footnote-ref-9)
9. دندش، المرجع السابق، ص136. () [↑](#footnote-ref-10)
10. المصدر السابق، ص5. () [↑](#footnote-ref-11)
11. ) ـ المصدر السابق، ص 175. ( [↑](#footnote-ref-12)
12. ) البكري، المصدر السابق، ص 178. ( [↑](#footnote-ref-13)
13. ) الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، طبقات المشايخ ،ص137.( [↑](#footnote-ref-14)
14. ) أخبار الأئمة الرستميين، ص81. ( [↑](#footnote-ref-15)
15. () **البكري**، مصدر سابق، ص 168. [↑](#footnote-ref-16)
16. () **البكري**، مصدر سابق،ص 168. [↑](#footnote-ref-17)
17. () دكاكير جمع دكور و هي الأصنام. [↑](#footnote-ref-18)
18. **() Trimingham(S),** Op.Cit, p46. [↑](#footnote-ref-19)
19. () **البكري**، مصدر سابق، ص182. [↑](#footnote-ref-20)